ذو الغمد

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب السيد جورج سلستي

كان البيطري « إيڤان » والأستاذ « بوركين » عائدين من القنص عندما دهمهما الليل في ذلك السهل الفسيح الأفيح فلم يريا بداً من أن يلتجئا إلى هري من أهراء القرية القديمة القائمة في أقصى البلاد لقضاء ليلتهما فيه

وإيڤان كان يقطن في ضاحية المدينة وقد ذهب للصيد ترويحاً لنفسه وتنشيطاً لبنيته ، وأما الأستاذ بوركين فقد كان يصطاف كل عام عند صديقه الكونت ب . ويتصرف في تلك الناحية على هواه كما يتصرف في منزله بين أهله ومحبيه

ولم يجد النوم إلى عيونهما سبيلاً ، فجلس إيڤان وهو كهل ناحل الجسم حيال الباب المغمور بأراد القمر وأضوائه يدخن غليونه على مهل ، واستلقى بوركين في الداخل على أكوام الهشيم يرى ولا يُرى

وتجاذبا أطراف الحديث ، وحديث الوحدة طويل ماينتهي ، وقصَّ كل منهما على رفيقه قصصاً شتى فيها الشائق الممتع وفيها التافه الممل ؛ وتحدث إيڤان فيما تحدث عن امرأة تدعى « مافرا » وقال عنها إنها حازمة نشيطة ، وإنها ليست بالحمقاء ولا الساذجة على ما في عاداتها من شذوذ وفي أخلاقها من نشوز ؛ وإنها لم تبرح القرية قط فهي لم تر المدينة إذن ولا أبصرت القطار ، وإنها منذ عشر سنوات حتى الآن لم تخرج من منزلها إلا ليلاً ، وأما نهارها فتقضيه جالسة حيال الموقد ...

إلا أن بوركين لم يدهشه الحديث عن «مافرا» هذه ولم يجد في أطوارها ما يستحق الاستغراب فقال مقاطعاً صديقه :

— وماذا ترى في الأمر من غرابة ؟ ! إن حب العزلة من طبيعة الكثيرين ، وإن بعض الناس كالسراطين لا ترغب عن التنسك بديلا ، أو كالحلازين تستطيب أبداً التخبؤ في أجحارها !

ولماذا التبسط في الذيول والحواشي وعندي من جوهر الأمر ما يغني عنها جميعاً ؟

فلئن كانت « مافرا » قد شاقتك أطوارها فماذا عساك تقول فيمن بزها في غرابة الأطوار بمراحل، وفاقها في شذوذها فوق ما تستطيع أن تتخيل ؟ !

فبالأمس القريب قضى زميلي بيليكوف نحبه فوارى التراب بموته فذاً من أفذاذ الخلق الناشز والطبع الغريب . ولقد كان رحمة الله عليه حييًّا إلى أبعد حدود الحياء ، ولا إخال إلا أنك سمعت الناس يتحدثون عنه ، فاسمه ملء الأفواه ، وذكره ملء الأسماع ؛ وشهرته هذه لم تكن لعلوّ كعبه في العلوم والآداب فحسب ، بل لغرابة أطواره ، وشذوذ

عاداته . فقد كان لا يخرج من منزله إلا لابساً معطفه وحاملاً مظلته ومنتعلاً « كوتشوكه » الواقي سواء لديه أكان الطقس ممطراً أم صحواً ، وسيان عنده بسمت السماء وهش الأفق أم تجهّما واربدّ منهما الأديم

ولا تسل يا صديقي عن تعلقه بالأغطية وشغفه بالاعتماد فلقد كان لمظلته غلافها ، ولساعته واقية من الجلد الأشهب ، ولموساه الصغير الذي لا يفارقه غمد يحفظها فيه ، ولكل شيء عنده غطاؤه حتى كان يخيل لعارفيه أن لوجهه كذلك وشاحاً يلقيه عليه أو ستاراً يحتجب وراءه

وقد كان يضع على عينيه نظارتين كثيفتين ويرتدي تحت معطفه صدرة من الصوف ، ويضع في أذنيه قطناً ، ويأبى كلما ركب عربة إلا أن ينشر غطاؤها ويبسط

والخلاصة أنه كان يتجنب الناس ما أمكنه الأمر وينأى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فرغبته في الانزواء ملحة قاهرة ، وكان يود لو يستطيع أن يتخذ لنفسه غمداً يقيه من العوارض الطارئة والمؤثرات الخارجية

فالحقيقة كانت ترهقه ، والاحساس بالوجود يرمضه ، والكائنات تثير مخاوفه وتقض عليه مضجعه وتجعله في قلق دائم وحزن مقيم

فلقد كان يكره الحاضر ويجتويه ، ويمتدح الماضي ويطريه ؛ وكان غير الموجود حبيباً إلى قلبه والموجود بغيضاً لديه ، ولم يكن ليجد فيه إلا ما يزيد هلعه ويكثر مخاوفه

واللغات القديمة التي كان يدرسها وينصب على آدابها ويتضلع في فنونها كانت له « ككوتشوكه » ومظلته ومعطفه التي كان يلوذ بها جميعاً تهرباً من حقيقة الحياة

وما أكثر ما كان يردد هذه العبارة المأثورة بصوت رقيق عذب :

— « يا لليونانية من لغة جميلة رنانة الألفاظ ! »

ثم كان يطبق عينيه ويرفع سبابته ويردف عبارته هذه بلفظة (انتروبوث)[1]

والأنكى من ذلك كله أنه كان يحاول وهو الذكي أن يبلد من توقد ذهنه ، كأنما كان يضن على فكره أن يظل طليقاً ، ويأبى إلا أن يجعل له حجاباً صفيقاً !

وما أشد ما كانت الفُرص المدرسية ممقوتة لديه ! فقد كان لا يراها إلا مدعاة لإثارة الشك والارتياب ، وما أكثر ما كان يشك صاحبنا ويرتاب ! وكان يحس إحساساً قوياً أن الفرص مغلّفة بغموض لا يأنس إليه فكره وإبهام لا يرتاح إليه ضميره

وحتى الرخص كانت بغيضة لديه ، وعند ما كان يُرخّص لأحد ما في المدينة بانشاء مسرح للتمثيل أو يؤذن له بتأسيس دار للمطالعة أو فتح ردهة للهو كان يهز رأسه الصغير ويقول بصوت خفيض : « إن هذا حسن ما في ذلك ريب ؛ وإن في هذا العمل لمنتهى الكمال ولكن على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

ثم إن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، سواء أكانت متعلقة به أم بسواه كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى

ولقد كان يسوءه أن يتأخر أحد زملائه الأساتذة عن تأدية فرض من فروض الدين ،

(١) لفظة يونانية معناها رجل

ويحزنه أن تسرى شائعة هزؤ عن أحد الطلبة ، ويؤسفه أن يلتقى أحدٌ بإحدى الناظرات عائدةً متأخرة مساء برفقة أحد الضباط . ولشد ما كان يتأثر من هذه الشؤون وأمثالها إذا قُدّر لها أن تحدث ، ويتمتم وشفتاه ترتجفان حنقاً : « على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

أما فى الاجتماعات التهذيبية العامة فقد كان كعادته يرهقنا جميعاً بتحفظه واحتراسه ، بريبته وحذره ، بتصوّرات أقلّ مايقال فيها انها تصورات (رجلٍ ذى غمدْ !) . وإن قيل له إن الطلبة كانوا يسيئون التصرّف ولا يحسنون السلوك ، أو أنهم يضجون فى صفوفهم ويصخبون كان يردّد عبارته المأثورة :

« آه ! على ألاّ يتصل الخبر بالادارة وعلى ألاّ يحدث شئ ، وإنما لو طرد (بتروف) من الصف الثانى أو (ابيكوروف) من الصف الرابع لكان أحسن »

وبعد فماذا تظن ياصديقى بمن كان لا يفتأ يتأوّه من غير سبب ويشكو من غير داع ؟ ومن تحسب من الناس كان عالةً علينا جميعاً ، ومن كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه ؟ وكنا مع ذلك كله نذعن جميعاً لإرادته ولا نعصى له رغبةً ولا أمراً ؟!!

وما قولك فى أن الأساتذة كانوا يمنحون بتروف وابيكوروف أسوأ العلامات فى دروسهما مداراة لشعوره ، وأن هذين التلميذين قد طُرِدا أخيراً من المدرسة من غير جريرة ولا ذنب نزولاً عند رغبته وإكراماً لخاطره

ويا ليت هذا كل مافى الأمر ياصديقى ، إذن لخفّت البلوى وضؤلَ المصاب ، ولكن هناك لنكد الطالع وسوئه ما هو آلم للنفس وأنكى

فقد كان رحمه الله يأبى إلاّ أن يزورنا فى منازلنا على كرهه للزيارات وبغضه لها ، ويأبى إلا أن يفدحنا بطلعته المشؤومة فى دورنا كأنما لم يكن يكفيه طول ماينكبنا بها أثناء ساعات التدريس ، لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء فرض لامناص له من إدائه ، وواجب لابدّ من القيام به لمن يشاء أن يحتفظ بالعلاقات الوديّة وصلات الاخوة به . وكان يبقى جالساً صامتاً لايتكلم ، إلا إذا أكره على الكلام أو اضطر إليه اضطراراً ؛ ويظل يحدّق فى شىء ما لا يحيد عنه نظره كأنما جاء لتتأمّل والصمت الطويل ، ويبقى كذلك ساعة أو ساعتين ثم يذهب لشأنه ويمضى لطيّته :

قلت لك إننا كنا نحن زملاءه نجاريه فى رأيه ونداري إحساسه وشعوره كثيراً ؛ وكان رئيس المدرسة نفسه يجاريه فى رأيه كذلك ويداريه مثلنا

لقد كنا جميعاً من أولى التفكير الحر ، التفكير العميق البعيد الغور ، مثقفين التثقيف العالى على أيدى (ثورغنيف) و (تشدرين) وأضرابهما من كبار الكتاب والفلاسفة ، إلا أن الذى كان يهز المدرسة منا هزاً ، ويقيمها دون سواه ويقعدها ، هو هذا الذى لم يكن ليتخلى قط عن معطفه ومظلته « وكوتشوكه » الواقى . ماذا قلت ؟ المدرسة ؟ ! إن المدرسة ليست بالتى تذكر ، فقد كان هذا القزم الهجين يسيطر حتى على المدينة بأسرها ، فكثيراً ما استنكفت سيداتنا من تمثيل الروايات على مسرح المدينة كعادتهن كل سبت من أجله ، وحتى كاهن الرعية كان يتجنب أن يفطر أثناء الصوم ، أو يلعب

بالورق أمامه ؛ وهكذا ظل الناس جميعاً خلال العشر أو الخمس عشرة سنة التي قضاها بيننا يرهبونه ويخشونه في كل شيء

وهنا سعل إيفان ليقطع على بوركين حديثه ، ثم أشعل غليونه بعود ثقاب وحدج القمر بنظرة طويلة ثم قال وهو يمط كلماته مطاً :

« عجبت والله من هذا الذي تحدثني عنه ياصاح ، رجال من ذوي النظر الثاقب والرأي الحصيف ، رجال ثقفوا بثقافة تورغنيف وتشدرين وأمثالهما من قادة الفكر والرأي يخضعون هذا الخضوع المهين ، ويتحملون هذا الذل الشائن ، ويقبلون هذا كله دون أن يتبرموا ؟ ! »

تابع بوركين حديثه : كان « وبيليكوف » يقطن في البناية التي أقطنها أنا ، وكنا على سطح درج واحد ، منزلي أمام منزله وبابه تجاه بابي ، وكثيراً ما كنا نتلاقى ، فمن الطبيعي إذن ، وأنا جاره وزميله ، أن أكون أدرى الناس بحياته الخاصة ، فعنده من الأقفاص والمزالج والأقفال وكل ماله صلة بالحماية والأمن والتقييد والحصر والتحظير والمنع ما لا يحصى ؛ فلقد كان كثير الخوف والحذر ، ترعبه في الليل أقل حركة ، وتفزعه أخف نأمة ، فلا ينام إلا وقد خبأ رأسه تحت لحافه غير عابئ بالدفء الذي يرهقه ، ولا بغاز أنفاسه الزوافر الذي يكاد يخنقه ، في حين تكون فيه الريح عاصفة مدوية ، ويكون صاحبنا الجزع الرعديد يرتجف تحت غطائه ! فلقد كان هذا الذي يخشاه الناس في نهاره يخشى كل شيء في ليله ، يخشى أن يحدث ما يذهب بقلبه ويطير بلبه ، يخشى عصف الريح بالمدخنة ودوي الصوت وهزة الباب ، يخشى أن يدهم اللصوص منزله ، وأن يروعوه بسلاحهم ، يخشى من خادمه الطاعن في السن (أفاناسي) أن يزحف إليه ويذبحه . فإذا غفا واستسلمت مقلتاه للكرى جاشت بمخيلته الأحلام تروعه وتخيفه ، وكثيراً ما كان يفيق من سباته مضطرباً مذعوراً . وهكذا كان يقضي المسكين لياليه التي كان يراها على قصرها طويلة ما تنتهي إلا بشق النفس ؛ حتى إذا حانت الساعة السابعة مشى إلى المدرسة مسرع الخطى عجلان لا يلوي على شيء ، شاحب اللون ، مضطرب الفكر ، قلق الروح ، حزين النفس ، مكمد الأسارير ، لا تعلو سيماه بسمة ولا بشر وكان يقول لي كلما رأى التلاميذ يضجون في صفوفهم ويصخبون : « إن هذا لمخيف ! » وكنت أعلم العلم اليقين أن هذه العبارة التي كانت في ظاهرها تعني ضجيج الطلبة وصخبهم لم تكن في جوهرها إلا شكاة نفسه المعذبة التي عبر بها عما كان يشعر به من ضنك وعنت .

ثم أتستطيع أن تتصور ، والحالة كما وصفت ، أن أستاذ اليونانية هذا الذي أحدثك عنه ، أن هذا (الرجل ذا الغمد) كان على وشك الزواج وأهبته ؟!

فالتفت إيفان بحركة عصبية سريعة وقال :

— « أجداً ما تقول أم مزاحاً يا هذا ؟ ! »

— نعم مهما يكن في الأمر من عجب ، فإن الحقيقة ما أقول ، وإن صاحبنا كان على أهبة الزواج حقاً وهاك جلية الأمر :

عين السيد « كفالنكو ميخائيل سافتش » أستاذاً جديداً للتاريخ والجغرافيا في مدرستنا ووصل إلينا حضرته مصحوباً بأخته « فارنكا » وكفالنكو

هذا على حداثة سنه طويل النجاد أسمر البشرة أجش الصوت ، إذا تكلم حسبت صوته خارجاً من «برميل» لا من حنجرة . أما أخته ڤارنكا فكانت في الثلاثين من عمرها هيفاء ممشوقة القوام بجلاء العينين وطفاء الأهداب وردية الخدين دقيقة الملاحظة فطنة إلى حد بعيد ، مرحة كثيرة الصخب ، تغني من غير ملل أغاني شعبية ، وتقهقه بين الفينة والفينة قهقهة عالية مدوية

وكانت المعرفة الأولى التي توثقت فيها صلات الود بين الأستاذ الجديد وأخته وبيننا في حفلة ساهرة راقصة أقامها الرئيس في عيده

ومن عباب ذلك المحيط المتزمت الرصين ، ووسط الأساتذة الجفاة الملولين الذين كانوا كأنما اضطروا للبقاء هناك اضطراراً ، انبثقت لنا أفروديت جديدة ساحرة ملأت المكان الذي كان لولاها فارغاً ما في ذلك ريب ؛ فكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتيها ضحكات ساحرة فاتنة ، وطوراً تغني وهي ترقص بخفة واتزان بصوت رقيق عذب أغاني عاطفية جميلة مسكرة ، وكانت أبلغ أغانيها في نفوسنا أثراً أغنية : « الريح تعصف » وأشدها تلاعباً بالعواطف تلك القصيدة الباكية التي أنشدتها من قلب محروق ، وسكبت فيها من العذوبة والسحر ما شاء لها الصوت الجميل والفن الرفيع ، فأسكرتنا بها جميعاً بما فينا « بيليكوف » وربما كانت هي المرة الأولى التي ظهر فيها أمامنا طلق المحيا باسم الثغر

وجلس حيالها ، وقال لها وهو يبتسم بصوت حاول جهده أن يجعله ناعماً لطيفاً :

— « إن اللغة الروسية تذكرنا بعذوبتها وجرس ألفاظها باللغة اليونانية القديمة : »

فألقت عليه نظرة عطف وابتسمت ، وراقته بسمتها فراح ينظر إلى شعرها الناعم المسترسل ، ووجهها الوسيم الصبوح ، وثغرها الباسم المفتر ، وخصرها الدقيق ، وقدها الرشيق نظرات كلها إعجاب وافتتان

وكأنما علمت أي هوى صادفته في نفسه فمالت إليه وحنت عليه وراحت تحدثه بدل وفخر عما تملكه من عقار وعما تنتجه المزرعة التي تملكها في (جادياتش) — حيث تسكن والدتها — من خضار وبقول وحبوب ، وعما يحفل به بستانها الثري من أشجار مثمرة وجنى شهي

واسترعى انتباهنا حديثهما لا سيما وليس فينا جميعاً من كان يحسب أن بيليكوف يستطيع أن يلفت نظر غادة بطلعته أو بحديثه

وأوحى لنا مرآهما خاطرة فذة كانت امرأة الرئيس أسبقنا إلى تبيانها فتمتمت :

« جميل والله أن نعقد له عليها ، فهي فتاة تخطت عتبة الثلاثين وهو قد تجاوز الأربعين وإخال أنها تقبله عريسا » وصمتت . ولم يتصد أحد منا للبحث في هذا الموضوع الشائك مع قرينة الرئيس ؛ ولئن يكن قد خطر في بالنا تزويجه فليس معنى ذلك أن نبحث الأمر جدياً ، وكلنا يعلم حق العلم رأي صاحبنا في النساء والزواج ؛ وكيف تريد أن نخوض في هذا البحث ولم يكن ليدور في خلد أحد منا أن رجلاً لا يرتدي إلا ثياب الشتاء في إبان الصيف ويتحصن لدى نومه خوفاً من طوارئ وهمية ، يستطيع أن يحب ويهوى

وكيف تريد أن نبحث في أمر زواجه وليس فينا جميعاً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ؟

ولقد خُيِّل إلينا للوهلة الأولى أن قرينة الرئيس هازلة فيما تقول فإذا بنا نراها جادّة كل الجدّ ؛ على أن هذا لم يَحُل قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء، وكل بحث فيه من باب التندّر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن فى مثل هذه الحفلات الساهرة تزجية للوقت ودفعاً للسأم .

وانقضت الحفلة وبودّ صاحبنا ألا تنقضى ، وانفرط عقد الحضور وبودّه أن يبقى منتظراً حتى الصباح . فلقد أحسّ للمرة الأولى فى حياته بنشوة علوية لم يسبق له أن يشعر بمثلها قط ؛ وأستطيع أن أؤكد لك ياصديقى أنه لم ينم ليلته تلك ، وأنه قضاها وهو يعيد فى ذاكرته ما دار بين ڤارنكا وبينه من حديث ، ويتصور كيف كانت تبسم له وتدل عليه . ولم يخف علينا هذا الميل الذى بدأ يشعر به ولا فاتنا إدراك الرغبة التي تتأجج فى حناياه للاجتماع بالفتاة، فكان أن تلطفت امرأة المراقب ودعته هو وڤارنكا لحضور رواية تمثل على مسرح المدينة فقبلا الدعوة بسرور ، وكانت هي فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجهها الطافح بشراً وإيناساً فاتنة أخاذة . وأما هو فقد جلس حيالها متجمعاً كأنما قد سحب من منزله بالكتيفة[1] سحباً . ولم يمض ردح من الزمن يسير حتى أقمت أنا حفلة زاهية زاهرة ودعوت إليها نزولاً على الحاح السيدات صاحبنا وفتاته . وهكذا بدأت الأمور فى سيرها الطبيعي . والذى كان يبدو لنا أن الفتاة لا تعارض فى الزواج من بيليكوف فيما لو عرضناه عليها ، لأنها تعلم العلم اليقين أن وقت الخيار والانتخاب قد تصرّم وفات ، وأن زمن الفتوة الذى كانت فيه تشمخ بأنفها على طالبي يدها من الشباب قد انقضى ؛ أضف إلى هذا رغبتها الملحّة فى النجاة من هذا الجحيم الذى تعيش فيه مع أخيها . فلقد كانا يتنازعان لأتفه الأمور ويتشاجران دون ما سبب ، ويختلفان على لاشيء . فالطباع لم تكن متآلفة ، والأخلاق لم تكن متجانسة . وهكذا كانا أبداً فى نفور ، وحياة كهذه كانت تقلقها وترمضها ، وكان كل ماتأمل أن يكون لها منزل خاص تنعم فيه مع زوج رضيّ الخلق ، ومن حق من كانت فى عمرها أن تكون لها هذه الأحلام والأمانى

لهذه الأسباب التى أبنتُها كنا نعتقد أنها تقبل ببيليكوف زوجاً وإن لم تَرَ فيه ماتفضله به على سواه

وكان يشوقه أن يراها وأن يجتمع بها من حين إلى حين إلا أنه كان فى زياراته لها كما كان فى زياراته لنا ، ما إن يأخذ مكانه حتى يعتريه الوجوم فيبقى صامتاً لاينبس ببنت شفة

وملأ ڤارنكا هذه الخلّة المستهجنة فيه فراحت تداويها بالهشّ له والبشّ فى وجهه ، وكثيراً ما كانت تغنى له أغنية « الريح تعصف » أو سواها من الأغانى التى يستسيغها ويستعذبها . أو تجلس بالقرب منه تنظر إليه بعينيها النجلاوين السوداوين نظرات صافية إن خلت من حب ما خلت من عطف ولكنه ما زال كما كان ؛ وما برح — على ما يضطرم فى نفسه من ميول وأهواء ، وبالرغم من هذا التشجيع الذى يلاقيه والأنس الذى تغمره به — فاتراً حييًّا ، ذلك لأنه كان يتهيب إبداء ما يكنه قلبه لها من

(١) الكتيفة ما تدعوها العامة كلاية

أحاسيس ويرى فى مطارحة أحاديث الوجد نوعاً من التهتك والغزل الأثيم ؛ غير أن أترابه ومعارفه ذكوراً وإناثاً كانوا كلما اجتمعوا به يلقون فى روعه أنه مخطىء فيما يذهب إليه ، وأن الحب سنة الله فى خلائقه وما فى الهوى المشروع إثم ولا حرج ، وأن الزواج خير له وأجدى عليه ، وأنه وقد عدا سني الشباب وتخطى زمن الصبا لم يبق له من الحياة كلها إلا أن تزف إليه تلك التى يصبو إليها ويهفو ؛ وأنها هى — والحق يقال — حسناء تجمع إلى الحسن والجمال خير الخلال وأطيب الخصال ، وأنها مغرية شائقة مرحة تجلو عن القلب المعنى همه وأساه ، وأنها إلى ذلك كله ابنة مستشار فى الدولة ولها من الأطيان والمقتنيات بائنة لا بأس بها ...

كان لعباراتنا فى نفسه ما نرجو من بغيا ، ولكلماتنا فى ذهنه ما نأمل من تأثير ، فقرر فعلاً أن عليه أن يتأهل

وهكذا يا صديقى انقلب المزاح جداً — وكم من جد جره اللعب — وأهدت إليه فارنكا رسمها الحبيب فقبله شاكراً ممتناً وأطَّره ، ووضعه على منضدته يتأمل فيه كلما خلا إلى نفسه .

— كان عليكم إذن وقد أقنعتموه بالزواج ، أن تقنعوه كذلك بضرورة تغيير ما هجن من عاداته فينهج نهجاً عادلاً صائباً دون أن يستهدف لسخرية الناس وهزئهم

— أعترف لك يا إيفان أن هـذا الأمر عسير حقاً . وما إخال أنه كان باستطاعتنا نحن أوفى قدرة سوانا أن يجادله فى هذا الشأن دون أن يلحق بنا سخطه وغضبه . ولماذا نلقى بأنفسنا فى مأزق حرج نحن فى غنى عن زجها فيه ؟

ومضت الأيام تترى ، كان فى خلالها يتردد على منزل كفالنكو فيبقى أثناء زياراته ــ شأنه فيما مضى ــ جامداً لا يتحرك . وقد كنا نحسب أن الحب كفيل بتقويم ما فيه من أوَدٍ ، وأن الهوى سيطلق روحه من إسار الأسى والكآبة ، فإذا بالأمر على النقيض مما كنا نأمل ، وأصبحنا لا نراه إلا ساهماً مطرقاً حزيناً ، وإذا بجسمه أبداً فى نحول كأنما كان يزداد يوماً بعد يوم إمعاناً فى التلاشى طى غمده الصفيق

وكان يأتى إلىّ فى بعض الأحايين يحدثنى عن الحياة العائلية وعن فارنكا كفالنكو ؛ ولقد قال لى مرة وهو يبتسم فى حياء بسمة حائرة مرتبكة : إنها — أى فارنكا — تروقه وتعجبه وإنه يعلم أن كل شخص سيتزوج يوماً ما ، ولكن أمر الزواج خطير ، ولقد وافاه بسرعة غريبة دون أن يتخذ له أهبتـه ودون أن يفكر فيه التفكير الشامل الوافى ، ثم سألنى قائلاً :

— ألا ترى مثلى أن علىّ أن أفكر لأجل مستقبلى ؟ فأجبته : تفكر فى ماذا يا عزيزى ؟ تزوج وينقضى الأمر

قال : لا ، إن الزواج لأشد خطورة مما تظن . وعلىّ أن أفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقى كى لا أقع فيما أحاذره وأخشاه . وهذا ما يقلقنى ويمضنى وينفى عن جفنىّ الكرى . فلقد بتُّ لا أنام إلا لماماً

إن لهـا كما لأخيها أسلوباً فى إدراك الأمور مضحكا . ثم إنها حامزة الفؤاد حادة الطبع ، وأخشى أن تكون حياتى معها كحياتها مع أخيها شجاراً دائماً ونزاعاً ما ينقضى

وهكذا كان يزن الأمور ويمحصها ويحسب للمستقبل العتيد ألف حساب . والغريب أنه كان يتنزه — مع ذلك كله — هو والآنسة ڤارنكا كل مساء تقريباً ، ظناً منه أن ذلك واجب يتحتم عليه القيام به ولا مندوحة له عنه

ويجب ألا أنسى أن أقول لك إن كوفالنكو استسمج بيليكوف وكرهه للوهلة الأولى التي وقعت فيها عليه عينه ، وكان يأنف حتى من ذكر اسمه . وكثيراً ما كان يقول لنا عندما كان يذكر اسمه في أحاديثنا عرَضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواشي فيما بينكم ولا كيف تقدرون أن تعيشوا هنا في هذا الجو الخانق ؟ تدعون أنكم سادة وأنكم أساتذة وإن أنتم إلا طلاب رُتب وهواة مناصب ، تعيشون في خنوع من مداراة هذا الدعيّ اللئيم . واسمحوا لي أن أقول لكم إنه ما هذا بمعهد علمي وإنما هو مجمع متدينين موبوء ! »

لا يا زملائي الكرام ، لن أبقى معكم إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده منصبي عندكم وأعود إلى مزرعتي أتقف الأميين فيها وألهو — كلما سنحت لي الفرصة — بالصيد ، وأعيش حراً طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف ؛ سأتأى عنكم عما قريب وأما أنتم فستبقون هنا مع يهوذا الخائن ، ألا ليته يموت ! »

ولا أزال أذكر يا صديقي ساعة جاء إلي في ثورة نفسانية هائلة كان بها أشبه بالأسد الطعين منه بالرجل الرزين . وقال وهو يضحك تارة ضحكاً هادئاً متزناً ، وطوراً ضحكاً موجعاً كئيباً :

« ماله عندي حتى يأتي إلى منزلي ؟! قل له بالله عليك إنني أكرهه ، وإنني لا أريد أن أبصر له في بيتي وجهاً بعد اليوم »

ولهذا كنا نتحاشى القول أمامه إنه سيكون صهره العتيد ! بل كنا نتحاشى ذكر اسمه أمامه . ولما قالت له امرأة المراقب في ساعة من ساعات اللهو البريء إنه قد حان له أن يزوّج أخته من رجل جد وقور يحترمه الناس ويجلونه ، امتعض وامتقع لونه وتجهمت أساريره ودمدم [1] :

« إن هذا لا يعنيني . وما تعودت يا سيدي أن أبحث فيما لا يتعلق بي ، ولا أحب أن أزج نفسي في شؤون سواي ... »

والآن أصغ لما حدث :

لا أدري أي ماجن دعابة رسم صورة بيليكوف (بكوتشوكه) وسرواله المرفوع ومظلته المفتوحة وڤارنكا تتأبط ذراعه ، وكتب تحت الرسم : « الأنتروبوس » العاشق

وكان الرسام موفقاً في رسمه إلى حدّ بعيد . ولا ريب في أنه قضى وقتاً طويلاً فيه حتى استطاع أن يبعث إلى كل أستاذ بنسخة منه . وقد تلقى بيليكوف نسخته كذلك ، ولا تسل عما كان له في نفسه من أثر بليغ

وكان اليوم التالي الموعد المضروب لاصطحاب التلامذة للتنزه ؛ فخرجنا أنا وبيليكوف من منزلينا معاً ، وكانت أمائر الإعياء والقلق بادية على محياه الشاحب الهزيل بأجلى مظاهرها . فابتدرني قبل أن أحييه بهذه العبارة المقتضبة التي هي في حقيقتها

(١) دمدم فلان على فلان : كلمه مغضبا

شكوى صارخة لما كان يعانيه من ألم نفسانى مرهق :

— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !

عبارة كان لها فى نفسى صداها البعيد فاستدرت رثائى له وشفقتى عليه

ورحنا نمشى الهوينى فى صمت ...

— فلنسر فى الطليعة !

نداء رنّ فى مسامعنا رنين البوق ، فالتفتنا فاذا بنا نرى ، أو تدرى من ؟ : كوفالنكو ممتطياً دراجته ووراءه أخته على دراجتها أيضاً ، وقد صاحت به ، وهى تلهث إعياء ، ليتابع تسياره ؛ واندفع كلاهما كالسهم المارق

وأدرت طرفى إلى رفيقى ، فاذا بى أراه قد سُمِّر فى مكانه ، ووقف مشدوهاً فاغر الفم جاحظ العينين كأنه التمثال المنحوت ، ولم يلبث أن قال فى يأس : هلا تلطفت فأسمعتنى ؟ : ما هذا الذى أرى ؟ أغشاوة على ناظرى يا ترى أم غشاوة على خاطرى ؟! قلت : لا هذه ولا تلك ؛ هوّن عليك ، فما فى الأمر ماينافى الأدب ، وليمرحا على هواهما فما هذا بضائرهما .

فقال وقد أدهشته رزانتى وهدوئى :

أأنت تقول هذا القول ؟ أيجدر بالأساتذة أم يليق بالآنسات أن يمتطوا الدراجات فى عرض الشوارع ؟

ولم يشأ أن أناقشه فى الأمر أو أناظره فيه ، وآثر أن يعود من حيث أتى ، موزّع الفكر مضطرب الجنان

وفى الغد كان لايزال شديد التأثر ، وكان يفرك يديه بعضهما ببعض وهو يرتجف كمن عرته البرداء ، ولم يطلْ به الوقت حتى أحس أنه لم يعد يستطيع البقاء ، فترك صفه — ولم يسبق له أن ترك الصف منذ أن زاول مهنة التدريس حتى تلك الساعة — ومضى إلى بيته

وعند الأصيل لبس ثيابه الشتوية مع أن الطقس كان دافئاً كأيام الصيف ، وذهب يبطء لزيارة كوفالنكو ، وكانت فارنكا قد خرجت من المنزل وبقى أخوها وحده فيه

« أرجو منك أن تتفضل وتجلس » هكذا قال كوفالنكو ببرودة ظاهرة وقد قطّب جبينه ، وكان قد أفاق من رقاده منذ بضع دقائق ، إذ كانت عادته أن ينام بعد الغداء ، وكان على أسوأ ما يكون خلقاً ومزاجاً

واستهل بيليكوف حديثه بعد عشر دقائق قضاها فى الصمت والتأمل فقال :

« ماجئت إليك لألقى عن قلبى بعض اعباء الهم الفادح الذى يرهقه ويضنيه فحسب ، بل لأكشف لك عن رأيى فيك الذى أرجو ألا تحمله منى على غير محمل النصح والارشاد ، فأنت لاتزال فى مطلع الصبا واما أنا فكهل ، وأنت حديث العهد بالأستاذية ، وأما أنا فأستاذ منذ خمس عشرة سنة ، فحرى بى إذن أن أكون أبعد منك نظراً وأوسع إدراكا ؛ وقد كنت ولم أزل منذ أن بدأت أشعر بمعنى الوجود حتى الساعة مثال اللياقة والأدب فى شؤونى كافة »

وظل كوفالنكو جالساً بوجهه الباسر الكالح صامتاً لايحير ، وانتظر بيليكوف قليلا ثم استأنف حديثه الهادئ بصوت لابسته نبرات الحزن :

« ولقد رأيتك أمس ممتطياً دراجة ، وركوب الدراجات من شأن الأولاد ، وإن هذه ألهية لا يليق بمهذب الشبيبة ومثقفها أن يلهو بها

— ولماذا يا سيدى ؟

— أو يحتاج هذا إلى إيضاح ياميخائيل وعهدى بك ذكى الفؤاد ؟ لئن ركب الأستاذ الدراجة فما يبقى للأولاد إذن أن يفعلوا إلا أن يمشوا على رؤوسهم ؟ ثم …

— ثم ماذا ؟

ثم إنى لم أصدق عينى عند ما رأيت أختك وراءك على دراجتها ، وليس أقبح من أن يرى المرء آنسة أو امرأة على ذلك الشكل المعيب

— والخلاصة ؟ ماذا تبتغى ؟

— لا أبتغى إلا أن ألفت نظرك إلى تجنب ما يشين سمعتك . فأنت حدث والمستقبل أمامك ، وعليك أن تسلك سبيل الرشاد كما ينبغى للرجل الحكيم العاقل أن يفعل . فأنت تتنزه كثيراً فى الشوارع ، وتحمل معك فى غدواتك وروحاتك كتباً الله أعلم ما تكون ، وتلبس حللاً هى أدنى إلى التأنق الأرعن منها إلى اللباس المحتشم ؛ وجاءت الدراجة ثالثة الأثافى … » فاحمر وجه كوفالنكو غضباً وصاح به :

— أما أن نمتطى الدراجة أنا وأختى فهذا لا يعنى أحداً سوانا ، وإنى لألقى بمن يتعرض لشؤوني أو لشؤون عائلتى فى جهنم ! والآن إليك عنى أيها المأفون . أغرب من أمامى فما تعودت ، وأنا الشريف ، أن أخاطب رجلاً مثلك . أغرب عن وجهى فأنا أمقت الواشين وأجتويهم

فقام بيليكوف مضطرباً ونبس معطفه والتأثر يهزه هزاً ، فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أهين فيها في حياته ، وسمع كلاماً جارحاً ماساً بكرامته ، وقال وهو يفتح الباب ليخرج :

« لك أن تقول ما تشاء ، ولكن أرى من واجبي أن أنذرك قبل أن أبارح منزلك . فربما يكون قد سمع حوارنا أحد من الناس ، وخوفاً من أن ينقله إلى المراقب العام مشوهاً أرى أن أنقله إليه بنفسي دون تحريف »

فاحتدم كوفالنكو غضباً وصاح به :

« تنقل الأحاديث أيها الواشى اللعين ؟ » وتقدم منه فأمسك من الوراء بعنقه وقال : « إذهب وانقل هذا إلى المراقب أيضاً » ودفعه وهو يركله برجله على قفاه فراح يتدهور من أعلى الدرج حتى أسفله

وقام المسكين مرضوض الجسم يتلمس فى وجهه وذراعيه مواضع الألم

إلا أنه فى اللحظة التى كان يتدحرج فيها على العتبات كانت ڤارنكا وسيدتان أخريان قد وصلن فوقفن معاً يراقبنه ، وكان هذا وحده عليه شراً من كل أمر سواه ، وكان خيراً فى نظره أن يدق عنقه وتكسر ساقاه من أن يكون أضحوكة فى عين من يهوي . والآن ستدرى المدينة بأسرها بأمره وسيتصل الخبر بالمراقب العام ، وقد يرسمونه فى أوضاع ساخرة شتى — فيالنكد الطالع — وهم إن فعلوا فسيتقدم إلى الإدارة بالاستقالة من منصبه من غير بد

وعند ما نهض عرفته ڤارنكا ولم تمالك لما رأت سحنته المنقبضة المضحكة ومعطفه المتسخ المغضن[1] أن أرسلتها ضحكة رنّ صداها فى البناء كله

وهذه القهقهة الساخرة قلبت أحلامه رأساً على عقب وطوحت بهنائه المزعوم ، فاسودت الدنيا فى عينيه واحلولكت مرائيها ، فلم يعد يسمع ولم يعد يرى . وما بلغ منزله حتى هرع تواً إلى رسم ڤارنكا

(١) المتجعد

فانتزعه من إطاره ومزقه تمزيقاً وألقى به فى النار ، ثم خلع عنه ثيابه ورقد فى سريره محرور الجسم منهوك القوى ولم يقم منه بعد ذلك

وبعد مضى ثلاثة أيام أتى إلى طاهيه « أفاناسى » يستشيرنى فى استقدام الطبيب لأن سيده على مايرى مدنف عليل ، فلم أر بداً من عيادته ، وقد وجدته نائماً وراء كلّته ، مغطى بلحافه حتى الرأس ؛ وطرحت عليه بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم ؛ وكان « أفاناسى » الطاهى يروح ويجىء حيال السرير مكتئب النفس محزون الفؤاد

وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وقلما اغتمضت عيناه فى لياليه السود لطوارق أوهامه ومروعات أحلامه ؛ وبعد شهر ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهى وأذاب جسمه المنهوك ، وقع المقدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح

أما هيأته وهو مسجى فى نعشه فقد كانت تنم عن العذوبة والطمأنينة كأنما كانت تنبىء عن السرور الذى شمله بوضعه أخيراً فى « غمده » وبلوغه الهدف الذى طالما حن له ، ولنيله المأرب الذى طالما سعى إليه

وسرنا — الأساتذة والطلبة — جميعاً وراء نعشه في موكب مهيب . وأبت السماء فى ذلك اليوم إلا مشاطرتنا ما كنا فيه من أسى على الفقيد الراحل فاربد أديمها واكفهر ، ولم تلبث أن بكت بدمعها الهاطل المدرار

وهكذا اضطررنا أن نرتدى معاطفنا ونحمل مظلاتنا وننتعل « كوتشوكنا » الواقى كأنما آثرنا ألا نتبع إلا ذوقه ولا نمشى الا على هواه حتى فى يومه الأخير . وأحسب أننى فى غنى عن إعلامك يا إيفان أن فارنكا كانت الوحيدة التى مشت فى جنازته خاشعة مطرقة بكل ما فى الخشوع والإطراق من معنى ، وأنها ذرفت عند ما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دمعها السخين . وأما نحن الآخرين فقد عدنا من دفنه ولا أكتمك وعلى وجوهنا أمائر الحزن ، لا أسى عليه ، بل لأننا كنا نأبى أن تظهر على وجوهنا دلائل السرور ؛ وموت رجل كبيليكوف مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشؤومة إبان حياته

لقد دفناه ، ولكن كم وكم بقى علينا أن ندفن من أمثاله ؟ إن الأرض ملأى بنظرائه ، وإننا عند ما نعيش فى بؤس فإنما نعيش فى (غمد) ، وعند ما نحيا فى محيط ضيق خانق ، أو عند ما نقضي حياتنا من غير جدوى ولا نفع ، أو نسف فى القول ولا نسمع إلا كل لغو لا طائل فيه ، أو نزجى أوقات الفراغ فى لعب النرد أو الورق ، فإنما نعيش فى (غمد) أليس كذلك ؟

— بلى ياصديقى ، ولكن أن نسمع الكذب ولا نسفه قائله ، وأن نرى الواشى ونجله الاجلال كله ، وأن نحتمل الذل الشائن ، ونرضى ونحن الأباة بالهون ، ونداري من لا يستحق أن نصفعه ، من أجل رتبة لا قيمة لها ومنصب لا أهمية له ، ثم لا يشرفنا . وللموت عندى خير من مثل هذه الحياة وأعذب

— هذا أمر آخر يا إيفان ، والآن فلنم ودخل الأستاذ فاستلقى على الهشيم ، ولم يلبث بعد بضع دقائق أن غفا ، وأما إيفان فقد خرج وجلس حيال الباب يدخن غليونه

جورج سلستى